

الحجاج اللغوي في السور القصار (السلام الحجاجية مثالاً)

الباحث: أ.م.د. مسلم مالك الأسدي

الباحثة: مروة خضير عباس الغزالي

*المخلص:

تهدف هذه الدراسة إلى بيان دور السلام الحجاجية في السور القرآنية القصار؛ وذلك من خلال تحديد مفهومها واستعراض القوة الحجاجية لها وتتمثل أهميتها في إظهار الجوانب الإقناعية لكل نص وردت فيه بإقناع المتلقي، أو تغيير معتقده في قضية ما، أو سلوكه تجاه أمر معين. لذلك لا بدّ من مراعاة كل ما يتعلق بالنص القرآني ولا سيما العناصر المكونة للخطاب القرآني الحجاجي، والإلمام بكل الجوانب التي تحمل المتلقي على الاقتناع إذ تظهر فاعلية الحجاج من خلال نسق الآيات وما تشتمل عليه من عوامل، وروابط، وأفعال كلام، والسلام الحجاجية، كذلك الأساليب بما فيها من الاستفهام، والنفي، والشرط، والقصر، والعطف، والتقديم والتأخير، وكذلك العلل النحوية والصرفية في مباني الكلمات والتراكيب المتنوعة، والإيقاع القرآني، ومواضع الآيات فيما بينهما، والصور التي يرسمها النص القرآني في باب الثواب والعقاب والرحمة الإلهية، والمشاهد الغيبية، والتشريعات ...

*Summary:

The purpose of this study is to explain the role of the pilgrim in the short Quranic scriptures by defining their concept and reviewing the pilgrims' power. The importance of this is to show the persuasive aspects of each text, in which the recipient is persuaded, or his or her belief changed in a particular case. Therefore, it is necessary to take into account everything related to the Quranic text, especially the components of the Quranic liturgical discourse, and the familiarity with all the aspects that carry the recipient to the conviction, showing the effectiveness of the pilgrims through the format of the verses and its elements, links, The Quranic rhythm, and the places of the verses between them, and the images drawn by the Quranic text in the door of reward and punishment and divine mercy, and the scenes of the Koran, Metaphysical, legislation

*المقدمة:

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء وأكرم الأصفياء والمرسلين أبا القاسم محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين. لقد حظي الحجاج باهتمام الدارسين في شتى المجالات عند مختصي اللغة والبلاغة والتفسير والفلسفة والمنطق والأدب وآخرون، وبهذا تعددت أنواعه فأصبح لدينا الحجاج اللغوي، والبلاغي، والإيقاعي، والمنطقي، والفلسفي وغير ذلك من الأنواع، وجاء النص القرآني حاملاً لصفات الحجاج بمختلف أنواعه؛ نتيجة للقضايا المتعددة التي ناقشها فيما يخص التوحيد، والترغيب والترهيب، وذكر مشاهد الدنيا والآخرة، والتشريعات؛ بقصد إقناع المتلقي واستمالته وتغيير قناعاته نحو الصواب، فالحجاج القرآني ولاسيما في السور القرآنية القصار يعدّ من الموضوعات التي تُعرض لنا الأساليب المعتمدة للتأثير في المتلقي؛ فهو يحمل في طياته معانٍ عديدة في سياق كل نص، فضلاً عن الأبعاد الجمالية والإقناعية التي يوحى بها النص القرآني لقارئه وسامعه، فهو معين لا ينضب من الأساليب والأفكار.

وتوقّر هذه الدراسة عرضاً لإحدى آليات نظرية الحجاج اللغوي متمثلة بالسلاسل الحجاجية الواردة في النص القرآني مع إعطاء نبذة مختصرة عن الحجاج اللغوي، فجاءت في مطلبين هما:

المطلب الأول: الحجاج اللغوي

تعدّ اللغة من أهم وسائل المحافظة على عملية التواصل بين البشر، فهي عبارة عن مجموعة رموز تؤدي وظائف متعددة، منها وظيفة التواصل، ولا تقف عند هذه الوظيفة فهي بصورة عامة تحمل بين طياتها طاقة حجاجية مفادها التأثير، وهي بهذا تزيج الفكرة القائلة بأن وظيفة اللغة الأساسية التواصل والإخبار فقط؛ بسبب المؤشرات التي تدل على طبيعة اللغة الحجاجية التأثيرية. فنظرية الحجاج في اللغة منبثقة من نظرية الأفعال اللغوية التي وضع أسسها (أوستين وسيرل)، وعمل بعد ذلك ديكره على تطوير أفكار وآراء أوستين (١). فقد عمل ديكره مع زميله أنسكومبر على إثبات تجذر مفهوم الحجاج في اللغة وتغلغله فيها (٢)، من خلال الاعتماد على آلية الخطاب اللغوي بوصفه ((ليس فقط وسيلة بل هو غاية أيضاً فهو وسيلة إخبارية تكمن غايتها في التأثير في الغير. وهذه العملية التأثيرية هي التي تدعى الحجاج بالنسبة لنا)) (٣)، فالباث ينتج عنه قول واحد أو مجموعة أقوال ينتج عنها في المقابل قول ثانٍ أو مجموعة أقوال أيضاً، يهدف من خلالها إلى التأثير في المتلقي وحمله على فهم الخطاب والافتناع به وهذه ليست بالعملية الهيئية مالم تعتمد على آليات الحجاج اللغوي المتمثلة بـ (الروابط والعوامل الحجاجية، المبادئ الحجاجية، السلم الحجاجي وقوانينه، وغير ذلك). فاللغة بذلك تضع ضابطاً يعمل على ترتيب الأقوال ضمن نسق لغوي له غاية محددة ضمن نص واحد، أو متعدد الاحتمالات ضمن النصوص المفتوحة. وبهذا فإنّ ((ترابط الأقوال لا يستند إلى قواعد الاستدلال المنطقي وإنما هو ترابط حجاجي لأنه مسجل في أبنية اللغة بصفته علاقات توجه القول وجهة دون أخرى وتفرض ربطه بقول آخر فموضوع الحجاج في اللغة هو بيان ما يتضمنه القول من قوة حجاجية تمثل مكوناً أساسياً لا ينفصل عن معناه يجعل المتكلم في اللحظة التي يتكلم فيها يوجّه قوله وجهة حجاجية ما)) (٤) وقد وضع علماء اللغة عدة تقسيمات لوظائف اللغة منها تقسيم العالم النمساوي كارل بوبر (١٩٩٤م) (٥).

١- الوظيفة التعبيرية؛ لتعبير الشخص عن حالاته الداخلية.

٢- الوظيفة الإشارية؛ لتبليغ الآخرين بالمعلومات المتعلقة بهذه الحالات الداخلية.

٣- الوظيفة الوصفية؛ لوصف وقائع العالم الخارجي.

٤- الوظيفة الحجاجية؛ لتقديم الحجج وتسويغها.

وبهذا يعدّ العالم بوبر من الذين نبهوا على الوظيفة الحجاجية للغة، وبشكل عام فإنّ أهم الأسس التي ارتكز عليها الحجاج اللغوي هي استبدال الفكرة الشائعة المتعلقة بالوظيفة الأساسية للغة، فقد كان الاعتقاد السائد يوضح أن الوظيفة الإخبارية هي الوظيفة الأساسية لها؛ وذلك بسبب تأثير النزعة المنطقية ومن بعدها التقاليد السوسيرية التي تابعت في هذا الأمر، فهم ينظرون للغة على أنها علامات تُوظف؛ لتمكين المتلقي من الحصول على صورة تخيلية يدرك من خلالها المعلومات التي لم يحصل عليها بشكل مباشر (٦) لكن لو نظرنا من زاوية أخرى نرى أنّ الوظيفة الحجاجية أكثر شمولية؛ لأنها تتضمن في الوقت ذاته وظيفة الإخبار والتواصل ((كون اللغة لها وظيفة حجاجية يعني أنّ التسلسلات الخطابية محددة، لا بوساطة الوقائع (les fait) المعبر داخل عنها داخل الأقوال فقط، ولكنها محددة أيضاً و أساساً بوساطة بين الأقوال نفسها، وبوساطة المواد اللغوية التي تمّ توظيفها وتشغيلها)) (٧).

المطلب الثاني: السلاسل الحجاجية في السور القصار .

يعدّ السلم الحجاجي من متطلبات الدراسات الحجاجية سواء أكانت اللغوية أم البلاغية أم الفلسفية والمنطقية، ومن معناه العام يعرف بأنه مفهوم للصعود والرقى أو هو التدرج من الحجج الضعيفة إلى الحجج القوية ليفضي بنتيجة نهائية تؤكد حجية الحجج المتدرجة، وغير هذا فقد تعددت مفاهيمه عند العرب والغرب، فعندما يعمل الباحثون على تقصى لفظة (سلم) في اللغة العربية يجدوها تدل على معنيين هما: ((معنى مادي وهو الآلة التي وضعت قصد الصعود والتي تتعلق بالمكان، ومعنى معنوي

ويتمثل في سلم المراقي في الفضائل والعلم^(٨)، ووردت في القرآن الكريم بمعنى الصعود والارتقاء والعروج إلى السماء^(٩) بدليل الآيات القرآنية الكثيرة التي أفادت هذه المعاني.

أما المفهوم الاصطلاحي العام والشائع لها فقد عُرفت بأنها: ((عبارة عن مجموعة غير فارغة من الأقوال مزودة بعلاقة ترتيبية و موقية بالشرطيين الآتين:

أ- كل قول يقع في مرتبة ما من السلم يلزم عنه ما يقع تحته ، إذ تلزم عن القول الموجود في الطرف الأعلى جميع الأقوال من دونه.

ب- كل قول كان في السلم دليلاً على مدلول معين، كان ما يعلوه مرتبة دليلاً أقوى عليه^(١٠)).

فالسلم يعتمد في بنائه الهيكل على حجج عديدة تكون متفاوتة في القوة الحجاجية؛ مزودة بعلاقة ترتيبية تعتمد هذه العلاقة بشكل أساس على القوة الحجاجية للحجج الواردة لتكوّن لها نتيجة نهائية أو ما يعرف بالحجة القوية، فالحجة كلما كانت أقرب من النتيجة كلما كانت أقوى وذات وقع في نفس المتلقي، ولأنّ موضوعنا يتعلق بالقرآن الكريم وكلام مفسريه، فقد اهتم المفسرون بالسلالم الحجاجية وعدّوها من أهم الوسائل التي تؤدي لبيان مقاصد الآيات القرآنية^(١١) فوجوه التفسير تقسم على قسمين: الأول تفسير اللفظ؛ لحاجة المفسر إلى التبحر في معرفة لسان العرب، والثاني هو حمل اللفظ على أحد معانيه بغية معرفة بعض أنواع العلوم والتبحر بها : كعلم العربية، واللغة وبهذا فإن التفسير بالمأثور يعطي قوة حجاجية قوية ويتضح ذلك في السلم الحجاجي الآتي^(١٢)

ن: الاحتجاج والإقناع

- ق: المأثور/ الرواية

- ق: الدراية/العقل

- ق: الإشارة

فتمثل هذا السلم بمجموعة من الحجج التي تربطها علاقة ترتيبية وفق القوة الحجاجية لتجعل القول الأقرب للنتيجة هو الأقوى. وبهذا فالأقوال تعطي للمتلقي نمطاً معيناً من النتائج تأتي بعدها الوجهة التي تمكن المخاطب من أن يسير فيها^(١٣) .

وقد أشار (ديكرو) و(أنسكومبر) إلى أنّ وظيفة الحجاج في الجانب اللغوي تكمن في التوجيه الذي يدور حول مستويين هما: مستوى السامع، ومستوى الخطاب ذاته^(١٤) ((والآية في توجيه السامع التأثير فيه، أو مواساته، أو إقناعه، أو جعله فعلاً ما، أو إزعاجه، أو إخراج. وفي مستوى الخطاب، يحصل هذا التوجيه حين يكون القول(ق١) مؤدياً بالضرورة إلى ظهور(ق٢)، صراحة أو ضمناً))^(١٥) .

ولابد من إبراز صورة السلم الحجاجي من خلال قوانينه، فقد صاغ ديكرو ثلاثة قوانين خاصة به، عُرفت من خلال كتاباته وهي:

١- قانون الخفض: ويقصد بهذا القانون أنه إذا صدق القول في مراتب ما من السلم، فإن نقيض هذا القول يصدق في المراتب التي تقع تحتها^(١٦).

٢- قانون تبديل السلم (النفي): ويعني هذا القانون ((أنه إذا كان القول دليلاً على مدلول معين ، فإن نقيض هذا القول دليل على نقيض مدلوله، بمعنى أننا لو استعملنا الملفوظ (ب) للدلالة على مدلول ما فإن نفيه (ليس ب) سيكون دليلاً على نقيض المدلول بمعنى إذا كانت (ب) تنتمي إلى الفئة الحجاجية المحددة بالمدلول (ج) فإن (ليس ب) تنتمي إلى الفئة الحجاجية المحددة بالمدلول (ليس ج)))^(١٧).

٣- قانون القلب: يرتبط هذا القانون بالنفي أيضاً، ويبين هذا القانون أن السلم الحجاجي للأقوال المنفية عكس سلم الأقوال الإثباتية ، فإذا كانت إحدى الحججتين أقوى من الأخرى في الدلالة على نتيجة معينة، فإن نقيض الحجة الثانية يكون أقوى من نقيض الحجة الأولى في الدلالة على النتيجة المضادة^(١٨).

وتعمل هذه القوانين بدورها على تأكيد نتيجة تسبقها من خلال حجة معينة أو مجموعة حجج؛ لتسهم في تحقيق القضية المطروحة أو دحضها، وبهذا فالسلم الحجاجي يتميز بالخصائص الآتية^(١٩):

١- القوة: وتتضمن هذه بوجود ((علاقة بين التراتب الحجاجي والقوة؛ حيث تمتلك كل حجة قوة قد تزيد ، أو تنقص على قوة حجة أخرى. بمعنى أن العلاقات الحجاجية تكون متفاوتة في قوتها بحسب القوة الحجاجية



لكل حجة ، ومن ثم فالعلاقات الحجاجية تتصف بالقصدية التي تستند إلى مجموعة من الاستراتيجيات التي تسعى إلى غاية واحدة)) (٢٠).

٢- التوجيه الحجاجي: وهو الذي يقوم بخاصية تحديد تسلسل القضايا، وفيه تنتمي الحجة أو القول لنفس الفئة الحجاجية ؛ لغرض تحقيق غرض (٢١) أو نتيجة معينة متأتية من التدرج التراتبي للحجج. وعند تتبعنا للسور القصار من القرآن الكريم تمثلت السلالم الحجاجية في مواضع عديدة، منها: قوله تعالى: (سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسْوَى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى) (٢٢).

تضمنت سورة الأعلى سلمًا حجاجيًا تنازليًا مبدوءًا بالنتيجة (ن) * (سبح اسم ربك الأعلى) ، متدرجًا بخمس حجج (ح) هي كالآتي:

- ح ٥: هو الذي جعل من النبات عدة منافع للإنسان.
- ح ٤: هو الذي أخرج النباتات.
- ح ٣: لأنه القادر والهادي.
- ح ٢: لأنه القادر على الخلق والتسوية.
- ح ١: لأنه الرب الأعلى.
- ن: تسبيح الله عز وجل.

فلكل هذه النعم وجب تسبيح الله وتعظيمه ، فما ذكرته الآيات المباركة من صفات: الربوبية، (الأعلى، والخلق، والتسوية، والتقدير، والهداية وإخراج المرعى)، توصلنا إلى الربوبية الحقّة لله سبحانه وتعالى، وبقليل من التأمل يتمكن أيّ منا إدراك حقيقة المعنى؛ ليصل نور الإيمان إلى قلبه، فيشكر المنعم على ما أعطى (٢٣) . فقد توالى الحجج من ناحية القوة الحجاجية وترابطها فيما بينها لتظهر نتيجة نهائية واحدة وهي تسبيح الله عز وجل ، وإذا كان هناك تساؤل من قبل المتلقي لماذا نسبحه؟ فالجواب جاء بعد النتيجة ؛ لأنه الرب الأعلى ، وهو الخالق ، والقادر والهادي ، وهو الذي رزقكم نعمة خروج النباتات وبعد يبسها تصبح صالحة لعدة تفيد البشر.

فعند تفسير هذه الآيات المباركة نقف عند كلمة (أخرج) ففيها ((وصف جميل لعملية تكوّن النباتات، حيث إنّه يتضمّن وجودها داخل الأرض فأخرجها الباري منها. ومما لا شك فيه إنّ التغذية الحيوانية هي مقدمة لتغذية الإنسان، وبالنتيجة فإنّ فائدة عملية تغذية الحيوان تعود إلى الإنسان. ثمّ: (فجعله غُثَاءً أَحْوَى). «الغثاء»: هو ما يطفح ويتفرق من النبات اليابس على سطح الماء الجاري (...) ، وجاء في الآية بمعنى: النبات اليابس المتراكم. «أحوى»: من (الحوة) - على زنة قوّة - وهي شدّة الخضرة، أو شدّة السواد، (...) ، وجاء في الآية بمعنى: تجمع النبات اليابس وتراكمه حتّى يتحول لونه تدريجيًا إلى السواد (...) وعلى أيّة حال، فللغثاء الأحوى منافع كثيرة.. فهو غذاء جيد للحيوانات في الشتاء، ويستعمل كسماد طبيعي للأرض، وكذا يستعمله الإنسان كوقود)) (٢٤) .

فكل ما تقدم ذكره من مسائل التقدير والهداية العامّة للموجودات، التي تناولتها الآيات السابقة ، تُعدّ من المسائل الحيوية التي يحتاجها الإنسان كلما تقدم به الزمان وتوسعت مداركه ، والباري سخرها له لينتفع بها ، فبعد هذا كله ألا يستحق التسبيح والتعظيم؟! .

ويظهر السلم الحجاجي تصاعديًا في قوله تعالى: (كَدَّبَتْ ثَمُودُ بِطغواها (١١) إِذِ ابْتِغَتْ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدمدم عليهم ربهم بذنبيهم فسواها (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا) (٢٥).

ورد السلم الحجاجي متمثلًا بست حجج مفضية لنتيجة واحدة كالآتي:



- ن: عاقبتهم الهلاك.
- ح ٦: فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها.
- ح ٥: فعقروها.
- ح ٤: فكذبوه.
- ح ٣: فقال لهم رسول الله: ناقة الله وسقياها.
- ح ٢: إذا انبعث أشقاها.
- ح ١: كذبت ثمود بطغواها.

تضمنت هذه السورة القصيرة ذات الفاصلة الواحدة والإيقاع الموسيقي الجميل ظواهر كونية عديدة ، فضلاً عن تضمنها لقصة قوم ثمود الذين طغوا وكذبوا نبيهم وقاموا بعقر الناقة التي حذرهم من الاقتراب منها ليجدوا أنفسهم من الخائبيين المعذبين الذين لم يفكروا بصون أنفسهم وتطهيرها من الموبقات ، وقد رسم لنا السلم الحجاجي نتيجتهم المخزية وهي الهلاك والعذاب بتدرج الحجج الواردة في السورة. والذي قام بفعل العقور هو شخص واحد من قوم ثمود وهو (الأشقي)، لكن النص القرآني عبر عن ذلك بلفظ (عقروها) ؛ لأنهم كانوا راضين بفعلة الشنيعة فشملمهم العذاب ، ((وهذا مبدأ من مبادئ الإسلام الرئيسية في التكافل في التبعة الاجتماعية في الحياة الدنيا. لا يتعارض مع التبعة الفردية في الجزاء الأخروي حيث لا تزر وازرة وزر أخرى. على أنه من الوزر إهمال التناصح والتكافل والحض على البر والأخذ على يد البغي والشر. عندئذ تتحرك يد القدرة لتبسط البطشة الكبرى : { فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها } (...). { دمدم } يوحي بما وراءه ، ويصور معناه بجرسه ، ويكاد يرسم مشهداً مروعاً مخيفاً! وقد سوى الله أرضهم عاليها بسافلها ، وهو المشهد الذي يرتسم بعد الدمار العنيف الشديد))^(٣٦) ، فجاء مشهد شدة العذاب موحياً يراد به تخويف النفوس وتحذيرها من التعدي على ما حرم الله الاقتراب منه، فقد جعل للناس سنة يستنون بها في أمورهم فمن التزم بها فقد استمسك بالعروة الوثقى ومن تجاوزها من المكذبين والطغاة فقد ظلم نفسه ووعدها العذاب والتنكيل.

ويقابلنا سلماً آخر يُبين حال فريقيين لكل منهما مأوى مختلف عن الآخر من ناحية العقاب والثواب في قوله تعالى: (فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧) وَأَثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١)) من خلال إيراد حجتين ونتيجة لمأوى الطغاة و مأوى المؤمنين:

- ن: مأواه جهنم خالدًا فيها
- ح ٢: وأثر الحياة الدنيا على الآخرة
- ح ١: لأنه تكبر وطغى.
ن: مأواه الجنة خالدًا فيها.
- ح ٢: ونهى النفس عن الهوى.
- ح ١: لأنه خاف مقام ربه الأعلى.

فقد قسم الباري أحوال خلقه يوم القيامة بحسب أهوائهم في الدنيا ، فمن طغى وتجاوز حدود الله بارتكابه المعاصي ، (و أثر الحياة الدنيا) فقد استبدل منافع الدنيا بعظيم ثواب الآخرة وكتب صحيفة أعماله بيده، ((وقيل: المعنى من أثر نعيم الحياة الدنيا على نعيم الآخرة والحياة حياتان: حياة الدنيا وهي المنقطعة الفانية، وحياة الآخرة، وهي الدائمة، فمن أثر الباقي الدائم على الفاني المنقطع كان حسن الاختيار، ومن أثر الفاني على الباقي كان سيئ الاختيار مقبحاً. ثم بين تعالى ما له في الآخرة فقال (فان الجحيم هي المأوى) أي النار مثواه ومستقره وموضع مقامه))^(٣٨). بعد ذلك ذكر الباري حال من خاف



مقام ربه بالتزامه بما أمر الله وامتناعه عن المعاصي ونهي نفسه عن السير وراء شهواته من خلال ترويض النفس وكبح جماح شهواتها والأخذ بها لطريق النجاة من خلال تحكيم عقله لما فيه أمر دينه وندياه وأخرته ، فيكون بعد ذلك ثواب هذه الأعمال الجنة بما فيها من نعيم دائم.

فالأنفس تشتهي ما تشتهي الأرواح في الغيوب والعقول والقلوب ، فيضطروهم هنالك إلى كل شيء يكون خاصاً للنفوس والأرواح ، جنات تظهر فيها أنوار شهود الحق، وأين الكافر والمعتل والمدعي من هذا المقام الكبير ؟ وهم خلقوا من الجهالة، فيموتون في الضلالة ، وأصحاب القلوب والمعارف تعيش أرواحهم عيش الربانيين، وعيش نفوسهم عيش الجنانيين أي أهل الجنة الحسية والله قادر بذلك يختص برحمته من يشاء من عباده ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « أسلم شيطاني » وقال : « نحن معاشر الأنبياء أجسادنا روح » ثم قيل أنه : لا يسلم من شر الهوى إلا الأنبياء وبعض الصديقين ، وكذلك من ألزم نفسه بالأدب^(٢٩).

وقد وردت آيات في السور القصار تتحدث عن أهوال يوم القيامة وأحداثها المفزعة التي يرد فيها سلماً حجاجياً يمثل تتابع الأحداث سراعاً في ذلك اليوم منها قوله تعالى: (إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمْتَ نَفْسًا مَا قَدَّمْتَ وَأَخَّرْتَ) (٣٠)

ن: علمت نفس ما قدمت وأخرت.

- ح ٤: وإذا القبور بعثرت.

- ح ٣: وإذا البحار فجرت.

- ح ٢: وإذا الكواكب انتثرت.

- ح ١: إذا السماء انفطرت.

تظهر حقيقة السلم التصاعدي هنا في تدرجه بوصف الانقلاب الكوني، ومن مظاهر هذا الانقلاب انشقاق السماء، وانتثار الكواكب وتفجير البحار من خلال فيضانها على اليابسة ، وبعثرة القبور وهذه ((إما أن تكون بسبب من هذه الأحداث السابقة، وإما أن تكون حادثاً بذاته يقع في ذلك اليوم الطويل ، الكثير المشاهد والأحداث ، فتخرج منها الأجساد التي أعاد الله إنشاءها - كما أنشأها أول مرة - لتتلقى حسابها وجزاءها، يؤيد هذا ويتناسق معه قوله بعد عرض هذه المشاهد والأحداث : { علمت نفس ما قدمت وأخرت } أي ما فعلته أولاً وما فعلته أخيراً، أو ما فعلته في الدنيا ، وما تركته وراءها من آثار فعلها، أو ما استمتعت به في الدنيا وحدها ، وما ادخرته للأخرة بعدها)) (٣١). فبعد هذه الأحداث ستري كل نفس الحقيقة الحتمية التي وعداها الله وقالها في كتبه المنزلة على أنبيائه ، وجاءت لفضة (نفس) غير مسبوقة بـ(كل) مع العلم أن الآية تتحدث عن كل الأنفس؛ وذلك لكون المفردة أجمل إيقاعاً وأشد تأثيراً بالنفس ، فالقارئ المتمعن عندما يقرأ النص تتابع عنده الأحداث حتى يقف مذهولاً عند هذه الآية (علمت نفس ما قدمت وأخرت) ؛ لأنها ستكون نتيجة تراها البشرية جمعاء.

وينتقل بنا الكلام لصورة أخرى تتحدث عن إنزال العذاب بـ(من طغى) من خلال رسم مشاهد لعقابه؛ لترهيب المتلقي ودفعه للعمل بإيمان تام، كما هو واضح في قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ) (٣٢) .

فالسلم الحجاجي يظهر في أربع حجج هي كالآتي:

ن: العقاب : بجعلهم كالعصف المأكول.

- ح ٤: ترميهم بحجارة من سجيل.

- ح ٣: أرسل عليهم طيراً أبابيل.

- ح ٢: ألم يجعل كيدهم في تضليل.

- ح ١: ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل.

جاءت النتيجة التي تحمل في طياتها صورة العقاب المخزي لأعمالهم التي تجاوزت حدود الشرع الإلهي. ويلاحظ من خلال قصة أصحاب الفيل أنها تتضمن بيان لقدرة الله أمام المستكبرين والطغاة على أفضل وجه، ولعل هذا العقاب الذي حلّ بأبرهة وجيشه لا يبلغه عقاب آخر، إذ بسببه تهشم جيشه وتحول إلى (عصف مأكول). وإنّ هذه الإبادة لهذا الجيش الجرار بكلّ ما يمتلكه من قدرة كان بواسطة أحجار صغيرة، تحملها طيور صغيرة^(٣٣). وفي هذه السورة المباركة تحذير وترهيب لكلّ طاغي في هذا العالم، ليرى أن قدرة الله تفوق ما لديه أضعافاً مضاعفة. وفي هذه السورة أيضاً إثبات لصدق دعوى الرسول(ص) في كونه لم يكن شاهداً على أحداث هذه الواقعة، لكنه سرد تفاصيلها بدقة على أسماع المشركين من خلال كتاب أحكمت آياته بشكل يفوق ما هم عليه آنذاك.

لقد اعتمدت السلاالم الحجاجية في السور القرآنية القصار على ((عدد من القواعد للتلفظ بالخطاب وفق ما تقتضيه العلاقة بينه وبين المرسل إليه))^(٣٤)، فتارة تدرج حججه في ما يهيئ للإنسان سبل السعادة والرخاء في الدنيا والآخرة وفق ما يستحق، وتارة أخرى يجسد لنا صوراً مفزعة عن أحداث مغيبة يرتجي من وراها أخذ العبرة والحيطه عند الإقدام على أي عمل في الحياة. ولكل هذه الصور تأثير جلي على ذات المتلقي للنص القرآني.

*نتائج البحث

بعد عرض الأفكار الرئيسية التي قامت عليها هذه الدراسة وبيان مفهومي الحجاج اللغوي وإحدى آلياته المتمثلة بـ (السلاالم الحجاجية) ووظيفتها، فضلاً عن تعدد الأمثلة القرآنية الواردة في السور القصار عنها، يمكن تلخيص نتائج الدراسة كالاتي:

- ارتكز الحجاج اللغوي على استبدال الفكرة الشائعة المتعلقة بالوظيفة الأساسية للغة، التي توضح أنّ الوظيفة الإخبارية هي الوظيفة الأساسية لها على اعتبار أنّها علامات تُوظف؛ لتمكين المتلقي من الحصول على صورة تخيلية يدرك من خلالها المعلومات التي لم يحصل عليها بشكل مباشر، لكن لو نظرنا من زاوية أخرى نرى أنّ الوظيفة الحجاجية أكثر شمولية؛ لأنها تتضمن في الوقت ذاته وظيفة الإخبار والتواصل.
- اعتمدت السلاالم الحجاجية في السور القرآنية القصار على عدد من الحجج التي تدرج من الحجة الضعيفة إلى الحجة الأقوى تنازلياً أو تصاعدياً، فتارة تدرج حججها في ما يهيئ للإنسان سبل السعادة والرخاء في الدنيا والآخرة وفق ما يستحق، وتارة أخرى تجسد لنا صوراً مفزعة عن أحداث مغيبة يرتجي من وراها أخذ العبرة والحيطه عند الإقدام على أي عمل في الحياة. ولكل هذه الصور تأثير جلي على ذات المتلقي للنص القرآني.

هوامش البحث:

- (١) ينظر: نظرية الحجاج اللغوي عند أوزفالد ديكر و أنسكومبر: ١٩٤.
- (٢) ينظر: المصدر نفسه: ١٩٦.
- (٣) ينظر: المصدر نفسه: ١٩٦.
- (٤) نظرية الحجاج في اللغة: ٣٥٢.
- (٥) ينظر: استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية): ١٤.
- (٦) ينظر: الوظيفة الحجاجية في القصص القرآني: ١٢.
- (٧) اللغة والحجاج: ١٦-١٧.
- (٨) السلاالم الحجاجية في القصص القرآني: ٩٣.
- (٩) ينظر: المصدر نفسه: ٩٤.
- (١٠) اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ٢٧٧.
- (١١) ينظر: السلاالم الحجاجية في القصص القرآني: ١٠١.
- (١٢) ينظر: المصدر نفسه: ١٠٠-١٠١.
- (١٣) ينظر: الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه: ٢٣.



- (١٤) ينظر: المصدر نفسه: ٢٣. يميلون الباحثون بالعادة لرأي (ديكرو) الذي يشير لوجود ثمة تلازم بين الحجج المتدرجة وبين النتيجة التي تصدر عنها، ينظر: نظرية الحجاج في اللغة: ٣٦٣.
- (١٥) الحجاج والاستدلال الحجاجي: ١٥٣.
- (١٦) ينظر: أسلوبية الحجاج التداولي والبلاغي: ١١٩.
- (١٧) المصدر نفسه: ١١٨.
- (١٨) ينظر: اللسان والميزان، ٢٧٨.
- (١٩) ينظر: السلام الحجاجية في القصص القرآني: ١٣٩.
- (٢٠) المصدر نفسه: ١٤٠.
- (٢١) ينظر: المصدر نفسه: ١٤٠.
- (٢٢) الأعلى: ١-٥.
- *يرمز للنتيجة بالرمز (ن) ، والحجج بـ(ح) ، والأقوال بـ(ق).
- (٢٣) الأمتل في تفسير كتاب الله المنزل: ٢١٠/٢٩.
- (٢٤) المصدر نفسه: ٢٠٩/٢٩.
- (٢٥) الشمس: ١١-١٤.
- (٢٦) في ظلال القرآن: ٣٠/٣٩١٩.
- (٢٧) النازعات: ٣٧-٤١.
- (٢٨) التبيان في تفسير القرآن: ٣٠/٢٦٤.
- (٢٩) ينظر: البحر المديد: ٧/٢٣٤.
- (٣٠) الانفطار: ١-٥.
- (٣١) في ظلال القرآن: ٣٠/٣٨٤٧.
- (٣٢) الفيل: ١-٥.
- (٣٣) ينظر: الأمتل في تفسير كتاب الله المنزل: ٢٠/٤٦٩.
- (٣٤) استراتيجيات الخطاب: ٩١.

المصادر:

*القرآن الكريم.

- 📖 استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية) ، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديدة المتحدة ، بيروت – لبنان ، ط ١ ، ٢٠٠٤م.
- 📖 أسلوبية الحجاج التداولي (تنظير وتطبيق على السور المكية) ، د. مثنى كاظم صادق ، منشورات صفاف-لبنان ، ط ١ ، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.
- 📖 الأمتل في تفسير كتاب الله المنزل ، ناصر مكارم الشيرازي ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت – لبنان ، ط ١ مصححة ، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.
- 📖 التبيان في تفسير القرآن ، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ) ، تح: أحمد حبيب قصير العاملي، مج ١٠، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، د.ط، د.ت .
- 📖 الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه ، سامية الدريدي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، عالم الكتب الحديث، إربد-الأردن، ط ٢ ، ٢٠١١م.
- 📖 الحجاج والاستدلال الحجاجي، إسماعيلي علوي حافظ، دار ورد الأردنية، ط ١.
- 📖 السلام الحجاجية في القصص القرآني مقاربة تداولية ، بوسلاح فايزة ، أطروحة مطبوعة بالآلة الكاتبة ، جامعة وهران ١ أحمد بن بلة ، ٢٠١٤ - ٢٠١٥م.
- 📖 في ظلال القرآن، سيّد قطب ، دار الشروق-بيروت ، ط ٣٢ ، ١٤٣٢هـ - ٢٠١٣م.
- 📖 اللسان والميزان أو التكوثر العقلي ، د.طه عبد الرحمن ، المركز الثقافي العربي، ط ١ ، ١٩٩٨م.
- 📖 نظرية الحجاج في اللغة ، شكري المبخوت ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم ، فريق البحث في البلاغة والحجاج، إشراف حمادي صمود، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية ، تونس ، كلية الآداب منوبة، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، د.ط ، د.ت .



- الوظيفة الحجاجية في القصص القرآني ، بان أمين عمر الربيعي ، جامعة الكوفة - كلية الآداب ، العراق ، ١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م.
- نظرية الحجاج اللغوي عند أوزفالد ديكر و أنسكومبر ، أ.جايلي عمر ، جامعة بالأغواط ، مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب ، ع٣٤ ، ٢٠١٨م.
- اللغة والحجاج ، أبو بكر العزاوي ، العمدة في الطبع ، الدار البيضاء ، ط١ ، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م.

